Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يعنينا فى الأمر هو ما خلّفه الإثنان من آثار فى الفن الذى نحن بصدده ، بصرف النظر عن الظروف التى أملت على كل منهما أن يختار أسلوباً بعينه ، وحينئذ نهتدى إلى أن البحترى أثرى فن العتاب والاعتذارات ، وكان له فضل الابتكار والتجديد فى معانيه وأساليبه .

وربما كان انتفاء الخوف ، وتعدد المخاطبين ، واختلاف مراتبهم من الأسباب التى مكنت البحترى من التأنى والتأنق والتفنن والتنويع فى سكب اعتذاراته وعتابه فى قوالب تناسب الحالات المختلفة ، الأمر الذى جعلنا نقف بإزاء لوحات بديعة مختلفة الألوان والمذاق ، وفيها من الجدة والتمايز ما لم نجده عند سابقيه . وفيما يلى أمثلة من عتابه واعتذاراته ، نبدأها بأبيات خاطب فيها واحداً من أحب ممدوحيه ، هو الوزير اسماعيل بن بلبل ، ولذلك نجده رقيقاً فى خطابه ، متأسفاً لتغيره عليه ، متسائلا عن سبب ذلك التغير ، ويلاحظ أنه يلجأ فى هذا النموذج إلى مايشبه محاورة النفس عن سبب ذلك الجفاء ، يقول الشاعر :

أُرَدِّدُ لَيتَ شِعْرِى مادَهَانى ... لَدَيْكَ ؟ لو انتفعتُ بِلَيتَ شِعْرى
متى أسأَلْ بِسُخطِكَ ما جَناهُ ... يَقُلْ مُسْتَخْبِرٌ أَنْ لَستُ أدرى

ثم يتولى الإجابة عن سؤاله الذى تصور أنه وجهه لبعضهم ، فلم يجد إجابة عنه ، يقول :

بَلَى حَضَروا وغِبْتُ وكانَ نَقْصاً ... علىَّ حُضُورُهم ومَغِيبُ ذِكْرى

فالسبب ينحصر إذن فى تخلّفه عن حضور مجلس الوزير ، وذلك تقصير يقرّ به ، ولكن له ما يبرره . ثم يقوده التدرج المنطقى إلى بيان أسباب تخلفه عن الحضور بأسلوب هادىء رزين خال من المبالغة والإسراف فى إظهار العواطف ، يقول :

فإنْ أَضعُفْ عن استِصلاحِ شَأْنى ... فَتِلكَ السِّنُّ شاهِدةٌ بِعُذْرى
وكنتُ أَعُدُّ طُولَ العُمْرِ غُنْماً ... فَعادَ بِضِدِّ ذلكَ طُولُ عُمْرِى

فالشيخوخة هى التى حالت بينه وبين تحقيق الزيارة ، وهى خير عذر له ، ثم يزيد المعنى إيضاحاً وتوكيداً ، حين يقرّ بمساوىء العجز والشيخوخة ، وكان